(١)

ترجمة الإمام أحمد بن حنبل

١٦٤ ـ ٢٤١هـ

هو أبو عبد الله، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، قدم به أبوه من مرو وهو حمل، فوضعته أمه في بغداد، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين.

قال صالح ابن الإمام أحمد: سمعت أبي يقول: ولدتُ سنة أربع وستين ومائة، في أولها في ربيع الأول.

وقال: توفي أبي رَحِمَهُ اللهُ ليلة الجمعة لثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فكانت سنُّه من يوم ولد إلى أن توفي سبعاً وسبعين سنة.

وينسب الإمام أحمد عادة إلى جده فيقال: أحمد بن حنبل؛ لأن جده كان أشهر من أبيه.

وأمه هي صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني، فهي شيبانية كأبيه، وكانت هي التي كفلته وأدبته، فأحسنت تأديبه ـ رحمها الله تعالى ـ.

كانت لوائح النجابة تظهر عليه من الطفولة، فحفظ القرآن، ودرس الفقه واللغة، وروي عنه أنه قال: كنت وأنا غليم أختلف إلى الكتّاب، ثم أختلف إلى الديوان وأنا ابن أربع عشرة سنة.

وكان شغفه بالعلم وإقباله عليه يدفعه للخروج قبل طلوع الفجر، فتأخذ أمه بثيابه، وتقول: حتى يؤذن الفجر ويصبح الناس.

○ طلبه للعلم:

عندما بلغ السادسة عشر، جلس إلى القاضي أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، روى الحافظ الذهبي في «تاريخه» عن الخلال: أن الإمام أحمد كان قد كَتَبَ كُتُبَ الرأي وحفظها، ثم لم يلتفت إليها، وشرح الله صدره للحديث.

فلزم هشيم بن أبي بشير بن أبي حازم الواسطي (١٠٤ ـ ١٨٣هـ) الذي انتهى إليه علم الحديث في بغداد، وكان ذا سمت وهيبة، وكانت مدة ملازمته له أربع أو خمس سنوات، سمع منه فيها كل ما عنده، وحفظ كل ما سمع.

ومع هذه الملازمة، فإنه كان يتردد على بعض مجالس المحدثين الآخرين مثل: عمير بن عبد الله بن خالد، وعبد الرحمٰن بن مهدي، وأبي بكر بن عياش.

وبعد موت هشيم، أخذ الإمام أحمد يطلب الحديث من مختلف الشيوخ في بغداد، نحواً من ثلاث سنوات، وفي السنة السادسة والثمانين بعد المائة بدأ رحلاته للسماع من شيوخ الأمصار، كما كانت العادة يومئذٍ.

فرحل إلى البصرة خمس مرات، كان يقيم في بعضها قرابة ستة أشهر، أو أقل.

ورحل إلى الحجاز خمس مرات، لقي في بعضها الشافعي. قال الإمام أحمد: «حججت خمس حجج، منها ثلاث راجلاً، وأنفقت في

إحدى هذه الحجج ثلاثين درهماً، وقد ضللت في بعضها عن الطريق وأنا ماشي، فجعلت أقول: يا عباد الله، دلوني على الطريق، حتى وقعت على الطريق».

ورحل إلى اليمن، فسمع من عبد الرزاق بن همام، ومكث بها سنتين.

ورحل إلى الكوفة.

ووعد الشافعي بالرحلة إلى مصر، ولكن حالت دون ذلك حوائل.

ولم يتوقف الإمام أحمد عن طلب العلم حتى عندما تقدمت به السن وصار إماماً، وسأله أحد الناس: إلى متى هذا وقد صرت إماماً للمسلمين، فقال ـ كما هو مروي عنه ـ: مع المحبرة إلى المقبرة.

وكان الإمام أحمد حريصاً على لقاء ابن المبارك والسماع عنه، فذهب إلى مجلسه سنة تسع وسبعين ومائة، أول سماعه من هشيم، فقالوا: خرج إلى طرسوس، وتوفي سنة إحدى وثمانين ومائة، وتأثر بسفيان الثوري وألمَّ بحديثه.

وكان يرغب الاستماع إلى مالك، ولكنه مات قبل أولى رحلاته. قال الإمام أحمد: فاتني مالك، فأخلف الله عليَّ سفيان بن عيينة، وفاتني حماد بن زيد، فأخلف الله عليَّ إسماعيل بن علية.

وعندما بلغ الإمام أحمد أربعين عاماً، جلس للدرس والفتوى، بعد أن عُرِفَ فضله وظهر علمه.

وكان مجلسه مجلس سكينة ووقار، نقل الذهبي في «تاريخه» عن المروزي صاحب أحمد: «لم أرَ الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس

أبي عبد الله، وكان مائلاً إليهم، مقصراً عن أهل الدنيا، وكان فيه حلم، ولم يكن بالعجول، بل كان كثير التواضع والوقار، إذا جلس بعد صلاة العصر، لا يتكلم حتى يُسأل».

وقدّر الذين يحضرون درسه بالمسجد بعد صلاة العصر بقرابة خمسة آلاف، يكتب منهم خمسمائة.

كما كان له ـ بالإضافة إلى درسه العام ـ درس خاص يلتقي فيه خاصة تلاميذه.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الدروس يعود إلى مراجعه المكتوبة، ولا يكتفي بحفظه، احتراساً وأخذاً بالأحوط والأثبت، وحرصاً على الدقة.

قال ولده عبد الله: «ما رأيت أبي حدَّث من حفظه من غير كتاب، إلا بأقلَّ من مائة حديث».

وربما ذكر الحديث من ذاكرته، فإذا أرادوا كتابته استمهلهم حتى يمليه عليهم من الكتاب قائلاً: الكتاب أحفظ شيء.

وكان يحث أصحابه وتلاميذه على أن لا يحدثوا دون كتاب.

وكان يرفض أن تكتب فتاواه، ويكره أن ينقلها أصحابه عنه، قال أحمد بن الحسين بن حسان: قال رجل لأبي عبد الله: أريد أن أكتب هذه المسائل، فإني أخاف النسيان، فقال أحمد: لا تكتب، فإني أكره أن تكتب رأيي.

وأحسَّ مرة بإنسانٍ يكتب، ومعه ألواح في كمه، فقال: لا تكتب رأياً لعلي أقول الساعة بمسألة، ثم أرجع عنها غداً.

ولم يكن الإمام أحمد هو الذي يستهل الدرس، وإنما كان يردُّ على الأسئلة، فإذا لم يسأله أحد لم يتكلم.

روى ابن الجوزي، عن أبي حاتم الرازي، قال: أتيت أحمد بن حنبل في أول ما التقيت به في سنة ثلاث عشرة ومائتين، وإذا هو قد أخرج معه إلى الصلاة «كتاب الأشربة» و«كتاب الإيمان» فصلى، فلم يسأله أحد، فَرَدَّهُ إلى بيته.

ولم يكن مجلسه مجلس علم فحسب، بل كان كثيرون يجلسون للتعرف على هديه وخلقه، والتأدب بأدبه(١).

قال في كتاب «شذرات الذهب»:

«كان أحمد إماماً في الحديث وضروبه، إماماً في الفقه ودقائقه، إماماً في السُّنَّة ودقائقها، إماماً في الورع وغوامضه، إماماً في الزهد وحقائقه.

قال الحافظ عبد الغني: رحل إلى الكوفة والبصرة، ومكة والمدينة، واليمن والشام والجزيرة في سبيل طلب العلم.

وسمع من سفيان بن عيينة، ويحيى القطان، وهشيم بن بشير، ومعتمر بن سليمان، ووكيع بن الجراح وغيرهم.

وروى عنه: عبد الرزاق بن همام، ويحيى بن آدم، والشافعي، والبخاري، ومسلم، وأبو داود.. وغيرهم كثير». اهـ.

○ صفته وهيئته:

قال العباس النحوي: رأيت أحمد بن حنبل، حسن الوجه، ربعة من الرجال، يخضب بالحناء خضاباً ليس بالقاني، وفي لحيته شعرات

(١) عن «تاريخ الإسلام» للذهبي، و«المناقب» لابن الجوزي، ومقدمة «الفتح الرباني» للبنا.

سود، ورأيت ثيابه غلاظاً إلا أنها بيض، ورأيته معتماً وعليه إزار.

وقال العكبري: رأيت أحمد بن حنبل، وكان شيخاً مخضوباً طوالاً، أسمر شديد السمرة.

وقال أبو بكر المروزي: رأيت أبا عبد الله إذا كان في البيت كان عامة جلوسه متربعاً خاشعاً، فإذا كان خارجاً لم يكن يتبين منه شدة خشوع كما كان داخلاً، وكنت أدخل عليه والجزء في يده يقرأ، فإذا قعدت أطبقه ووضعه بين يديه.

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: جالست أبا يوسف، ومحمد بن الحسن، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمٰن بن مهدي، فما هبتُ أحداً منهم ما هبت أحمد بن حنبل(١).

وقال عبد الملك الميموني: ما أعلم أني رأيت أحداً أنظف ثوباً، ولا أشد تعاهداً لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوباً، ولا أشده بياضاً من أحمد بن حنبل(٢).

○ أدبه ومعيشته وزهده:

قال أبو داود السجستاني: لم يكن أحمد بن حنبل يخوض في شيءٍ مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم.

وقال: كانت مجالسة أحمد مجالسة الآخرة، لا يذكر فيها شيء من أمر الدنيا، ما رأيت أحمد يذكر الدنيا قط.

وقال أبو الحسين بن المنادي: سمعت جدي يقول: كان أحمد

(١) «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص٢٠٨ ـ ٢١٠).

(٢) كتاب «صفة الصفوة» (٢/ ٢٢٢).

أحيا الناس وأكرمهم نفساً، وأحسنهم عشرة وأدباً، كثير الإطراق والغض، معرضاً عن القبيح واللغو، لا يسمع منه إلا المذاكرة بالحديث وذكر الصالحين والزهاد، في سكون ووقار ولفظ حسن(١).

قال صالح بن أحمد: ربما رأيت أبي يأخذ الكِسَر فينفض الغبار عنها، ثم يصيّرها في قصعة، ثم يصب عليها ماء حتى تبتل، ثم يأكلها بالملح، وما رأيته قط اشترى رماناً ولا سفرجلاً ولا شيئاً من الفاكهة، إلا أن يشتري بطيخة فيأكلها بخبز، أو عنباً أو تمراً، فأما غير ذلك فما رأيته قط اشتراه، وكان كثيراً ما يأتدم بالخل، وكان يُشتَرى له شحم بدرهم، فكان يأكل منه شهراً.

وقال النيسابوري صاحب إسحاق بن إبراهيم: قال لي الأمير: إذا جاء إفطاره فأرنيه، قال فجاؤوا برغيفين خبز وخياره، فأريته الأمير، فقال: هذا لا يجيبنا إذا كان هذا يقنعه.

وقال عبد الله بن أحمد: كان أبي أصبر الناس على الوحدة، لم يره أحد إلا في مسجد، أو حضور جنازة، أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق(٢).

قال إسحاق بن راهويه: لما خرج أحمد إلى عبد الرزاق، انقطعت به النفقة، فأكرى نفسه من بعض الجمالين إلى أن وافى صنعاء، وكان أصحابه عرضوا عليه المواساة فلم يقبل من أحد شيئاً.

قال صالح بن أحمد: كان أبي إذا دعا له رجل، يقول: الأعمال بخواتيمها، وكنت أسمعه كثيراً يقول: اللَّهُمَّ سلّم سلّم(٣).

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» (ص٢١٤، ٢١٥).

(٢) كتاب «صفة الصفوة» (٢/٢٢٦).

(٣) «مناقب الإمام أحمد» (ص٢٢٦، ٢٨٣).

○ عمله بالسُّنَّة:

كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يبذل جهده في التزام السُّنَّة النبوية والعمل بها في كل شؤونه، بل ربما قام بالأمر بغية الاقتداء برسول الله ﷺ.

قال المروزي: قال لي أحمد بن حنبل: ما كتبت حديثاً عن النبي ﷺ إلا وقد عملت به، حتى مرَّ بي في الحديث: أن النبي ﷺ احتجم وأعطى الحجام ديناراً، فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمت[(١)].

وقال إبراهيم بن هانئ: اختفى أحمد بن حنبل عندي ثلاثة أيام، ثم قال: اطلب لي موضعاً حتى أتحول إليه، قلت: لا آمن عليك يا أبا عبد الله، قال: إذا فعلت أفدتك، فطلبت له موضعاً، فلما خرج قال لي: اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة أيام، ثم تحوَّل، وليس ينبغي أن نتبع رسول الله ﷺ في الرخاء، ونتركه في الشِّدة[(٢)].

وقال أبو يعقوب الأعمش: سئل أحمد بن حنبل عن الوساوس والخطرات، فقال: ما تكلم فيها الصحابة والتابعون[(٣)].

هذه أمثلة قليلة من فيض لا ينتهي من التزام أحمد بالسُّنَّة، وحرصه على اتباعها.

○ المرض والوفاة:

قال المروزي: مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء، لليلتين خلتا من

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» (ص١٧٦).

(٢) «تهذيب حلية الأولياء» (٣/ ١٤٤) نشره المكتب الإسلامي.

(٣) «مناقب الإمام أحمد» (ص١٧٦).

ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين، ومرض تسعة أيام، فلما اشتدت علته، وتسامع الناس أقبلوا لعيادته، فكثروا ولزموا الباب، الليل والنهار، وأذن للناس فدخلوا أفواجاً أفواجاً يسلمون عليه، فيرد عليهم بيده.

فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين، قال: ادعوا الصبيان ـ بلسان ثقيل ـ يعني: الصغار، فجعلوا ينضمون إليه، وجعل يشمهم ويمسح على رؤوسهم بيده، وعينه تدمع.

فلما كان يوم الجمعة، اجتمع الناس، حتى ملؤوا السكك والشوارع، فلما كان صدر النهار قُبضَ رَحِمَهُ اللهُ، فصاح الناس، وعلت الأصوات بالبكاء، حتى كأن الدنيا قد ارتجت(١).

قال موسى بن هارون: يقال: إن أحمد بن حنبل لما مات مُسحت الأمكنة المبسوطة التي وقف الناس عليها للصلاة، فحزر مقادير الناس بالساحة على التقدير: ستمائة ألف وأكثر، سوى ما كان في الأطراف والسطوح والمواضع المتفرقة(٢).

رحم الله الإمام أحمد رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

○ شهادات الأئمة:

كثيرة هي الشهادات التي تعبر عن مكانة الإمام أحمد، والتي صدرت عن علماء الجيل الذي عاش فيه، وأذكر طرفاً منها، فالمقام لا يتسع لذكرها.

قال الخلال: سمعت أبا القاسم بن الجبلي ـ وكفاك به ـ يقول:

---

(١) «مناقب الإمام أحمد» (ص٤٠٤ ـ ٤٠٦) باختصار.
(٢) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٣٣).

أكثر الناس يظنون أن أحمد إذا سئل، كأن علم الدنيا بين عينيه.

وقال إبراهيم الحربي: رأيت أحمد، كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين.

وقال أحمد الرازي: ما رأيت أسود الرأس أحفظ لحديث رسول الله ﷺ، ولا أعلم بفقهه ومعانيه من أحمد بن حنبل.

وقال عبد الرزاق: ما رأيت أفقه من أحمد بن حنبل ولا أورع.

وقال وكيع: ما قدم الكوفة مثل ذلك الفتى؛ يعني: أحمد.

وقال قتيبة: أحمد بن حنبل إمام الدنيا.

وقال المزني: قال لي الشافعي: رأيت ببغداد شاباً إذا قال: «حدثنا» قال الناس: صدق، قلت: من هو؟ قال: أحمد بن حنبل.

وقال الشافعي: خرجت من بغداد، فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم، ولا أفقه، ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال علي المديني: إن الله أعزَّ هذا الدين بأبي بكر الصديق يوم الردَّة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة.

وقال أبو عبيد: انتهى العلم إلى أربعة، أحمد بن حنبل وهو أفقههم.

وقال ابن معين: ما رأيت مثل أحمد.

وسئل بشر بن الحارث عن أحمد، فقال: أنا أُسأل عن أحمد؟ إن أحمد أُدخل الكير، فخرج ذهباً أحمر.

وقال أبو زرعة: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل في فنون العلم، وما قام أحد مثل ما قام أحمد به.

وقال أبو عمير الرملي ـ وذكر أحمد ـ فقال: رحمه الله، عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، وبالصالحين ما كان ألحقه، عرضت له الدنيا فأباها، والبدع فنفاها[١].

(١) «مناقب الإمام أحمد» (ص١٠٦ ـ ١٣٨).